

الفصل الثاني

الشيخ إبراهيم اليازجي في عصره

١ - حياته

ولد الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي في بيروت في الثاني من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٧ م في بيت هو موئل اللغة والأدب ، وتخرج في مبادئ العلم وأصول اللغة على أبيه ثم قرأ على نفسه ، فنال بجملة ذكائه الغاية البعيدة ، ونظم الشعر في ريعان الشباب ، فجاء شعره برهاناً على الإتقان وعلى أنه ورث الخيال عن أبيه ، فرق أدبه وصفا خاطره وتطابرت شهرته في جودة النظم^(١) ، فاحتكم إليه فريق كبير من الأدباء وورد عليه من رسائل الشعراء الشيء الكثير ، حتى أصبح مجلسه لا يخلو من بحث شعري أو أدبي ، على أنه رأى في ذلك ما يشغله عن سواه ، فهجر النظم وعكف على المطالعة ، ودرس الفقه الحنفي على المرحوم الشيخ محيي الدين اليافي أحد مشاهير الأئمة في ذلك الحين ، فنال منه حظاً وافراً .

وفي السنة ١٨٧٢ م عهد إليه تحرير جريدة « النجاح » ، فظهر من اقتداره ما بعدت معه شهرته ، وعمد الآباء اليسوعيون يومئذ إلى ترجمة الكتاب المقدس ، فاستعانوا به وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء والسبك وانتخاب الألفاظ للمعنى المراد ، فكان ذلك سبباً في درسه اللغة العبرية والمريانية ليلبس عبارة الترجمة المعنى الأصيل بصدق وأمانة .

فصرف في ذلك الكتاب نحو تسع سنوات يتحرى المعنى ويضع الكلمة اللائقة التي تنطبق على المعنى الصحيح ، فلا يعورها خلل فكري أو لفظي .

(١) انظر المنتخبات .

حتى أخرجه بحلة أنيقة على أفضل ما يرجى بلاغةً وصوغاً وفصاحة مفردات ، ولا سيما العهد القديم الذي أطلقت له اليد في تنقيحه ، فجاءت ترجمة حسنة الدباجة صافية اللغة ناصعة العبارة .

وكان كلما أرقه تعب الكتابة والتأليف مال إلى الراحة استجماماً ، فيصرف أوقات فراغه في الرسم والحفر والموسيقى ، وقيل : إنه كان دون الرابعة عشرة من عمره حين صنع أول تقويم « روزنامه » عربى^(١) وقد ألع في مطلع شبابه بالشعر ثم ما لبث أن انصرف عنه إلى النثر ، فجال فيه جولات ، وفقة حتى أصبح فيه فارساً من أسبق فرسانه وعلماً من كبار أعلامه ، وسارت له بسطة علم وقدم راسخة في اللغة بحقيقتها ومجازها ، فبز المتقدمين والمتأخرين في دراستها وحذقها ، وتبوأ منصة البيان وجلال الأسلوب ، متفرداً بمعرفة أصولها وفرعها واشتقاق كلماتها وشواردها وأوابدها ، وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها ، وعروضها ، وقوافيها ، وجزلها وسهلها ، وأحاط بأخلاق العرب وعاداتهم وأنسابهم ووقائعهم وأخبارهم رواية ودراية ، فعنت له صاغرة وأنالته عنانها ، فأركض جواد قلمه في ميدانها ، فجال وصال وبرع وأبدع ، مستعيناً بتوقد ذهن فطرى وذاكرة مرهفة الشعور ، وعت فاستوعبت حتى صار حجة يعول عليه ، ومرجعاً في حلّ عقد اللغة العربية وجللاء مبهماتهما ، وهو العارف بموارد الكلام ومصادره ، والبصير بجيده وسفسافه ، والطويل النفس في بحوثه اللغوية ، البعيد غور الحجة ، فلم يتورع عن أن يحمل حملة عنيفة على كتابات الأقدمين والمحدثين ، فخطأهم وأقام الدليل على سلامة نقله بالحجج القواطع والبيانات النواصع ، غير تارك زيادة لمستزيد ، فكان يصوب سهم براعته إلى تلك الخطيئات أو السقطات عن قلب مملوء بالشجاعة ، غير متوار وراء معاقل المخابى ، فيصيب المرعى ، ويرسله باضعه إلى الجراح الوسخة العفنة فيشنى المعضل منها غير عابئ بأنين المتألمين ودمدمة المدعين^(٢) .

(١) « النفائس » الاحتفال بنقل رفات المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى . بيروت مطبعة النفائس سنة ١٩٠٦ ص ٢٢ .

(٢) « الشدياق واليازجى » للأب أنطونيوس شبل طبعة بيروت ص ٥ .

٢ - مشاركته في أحوال العصر سياسياً

لم يكن مترجمنا حريصاً على اللغة فحسب بل تناول القومية العربية وعمل في سبيل إحيائها وإذكاء نارها في قلوب النشء، وكان يرى إلى أن يرى البلاد العربية متمتعة باستقلال تام، رافعة عنها النير العثماني، يدلنا على ذلك انخراطه في سلك الجمعية العلمية السورية التي أنشئت في بيروت سنة ١٨٦٨ م فكانت تتلى في اجتماعاتها قصائد عامرة ومقاطع شعرية مثيرة تتحدث بأجناد العرب.

وفي أول اجتماعاتها دوى أول صوت للحركة العربية والدعوة إلى القومية فكان صوت شيخنا الذي أنشد قصيدة هز بها أوتار القلوب وحركها لتنظر إلى حاضرها ملتفتة إلى الوراء وما كان لها من مجده تليد وعزّ عريق قال في مطلعها:

تنهبوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب^(١)

وتجاوب صداها في البلاد العربية عامة، ثم أتبعها بقصيدة ثانية مطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس^٢

وقد تطارق فيها إلى العمامم والقلائس والمساجد والكنائس مما حملنا على إغفالها في المنتخبات، وهداها تحريض العرب على السعي للاستقلال متخذاً الجبل الأسود نموذجاً حياً للاستقلال والدفاع عن كيانه وانسلاخه عن الدواة العثمانية^(٣).

ومن قراءة القصيدة «دع مجلس الغيد» نرى نفساً ثائرة آلمها ما غشى البلاد من فساد إداري واجتماعي، آل إلى موجة سأم وكراهية عصفت بالنفوس فتمنت زوال الحكم العثماني.

وقد نشرت القصيدتان غفلاً من التوقيع، فاهتمت بهما حكومة الآستانة وبأمثالهما وسعت جاهدة لتعرف الناظم فراح سعيها عصفه ربيع^(٤). فما تقدم

(١) راجعها في المنتخبات.

(٢) «العروبة ومواكبها» أقوال ج ٢ محمد جميل بيهم - مطبعة الكشاف بيروت ص ١٥.

(٣) «المختارات السائرة» لأنيس الحوري المقدسي طبع دار العلم للملايين بيروت ص ١٦٣.

ففهم نزعة الشيخ العربية وحب الخالص لها وما كان يجول في خاطره من ميل شديد إلى استقلال البلاد العربية جملة والتفلت من قيود العثمانيين الذين طغوا وبغوا فأيموا النساء ويتموا الأطفال وأفقروا البلاد، وعقلوا العقول وهشموا الأبواب وساروا بالناس ولا سيما العرب كأنهم سائمة .

وصور مترجمنا حالة البلاد بقوله : « وما عداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها قلب الأحوال ، فلم يبقَ منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها الآن قرى حقيرة ، منتشرة في هاتيك الربوع الدائرة ، يأوى إليها شرادم من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب واليوار » (١) .

وما قدمنا هذا إلا لنبين مشاركة الشيخ إبراهيم في أحوال عصره السياسية ، ومن أحب لغته أحب قومه وسعى إلى رفعتهم وإنهاض شأنهم ، واللغة مفتاح سجن الأمم المغلوبة ، فإذا أضاعت لغتها فكأنها فتحت أبواب سجنها بيدها لتدخله .

٣ - أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله ريع القامة عصبي المزاج ، حاد الذهن ، ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر ، لا يمل مجلسه ، يطرب للنكته ويضحك ، عفيف النفس ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ، شديد الحرص على كرامته ، كثير الإباء ، ولا سيما بما يتعلق بالارتزاق ، يعد مجاملة الناس في الكسب تملقاً ، ولولا ذلك لعاش في سعة وبسطة من العيش ، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته (٢) ولم يرغب قط في الوظيفة وخدمة الحكومة فقد انتدب في سنة ١٨٨٢ م ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض (٣) .

واقدم اشتهر بأدبه الرفيع وخلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته

(١) راجع المنتخبات . (٢) « النفائس » ص ٢٤ .

(٣) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٥ .

ورزاقته ، وضنائه بسمعته وكرامته من التبذل والتسفل ، يترفع عن المهاترة والمقاذعة والمحاشنة في مجاهداته ومجادلاته ، يجلّ خصمه لإجلاله لنفسه ، وينتقد الخطأ محترماً صاحبه ، متجاوزاً هجر الكلام الداعي إلى التناؤد والتنافر ، والتقاطع والتدابير ، وجرّ المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . ولعل هذين البيتين يدلاننا على مجمل أخلاقه قال :

ليس الوقية من شأني فإن عرضتُ
أعرضتُ عنها بوجه بالحياء ندى
إني أضنّ بعرضي أن يلم به
غيري فهل أتولى خرقه بيدي ؟

٤ - برّه بأبيه

لقد أثر عن الشيخ مترجمنا أنه كان برّاً بأبيه الشيخ ناصيف مفاخرّاً بأدبه وعلمه ، يؤلمه أن ينال أحد قلامه ظفر منه ، فقد نظر في كتبه وأصلح الخطأ منها وقال إنه اختصرها ، وقام على شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ونسبه إلى أبيه ، لأنه كان قد بدأه ، فلم يرغب في أن يجعل الفضل فيه لنفسه بل احترم لإرادة والده وكان قد شرع يعلق على شعر أبي الطيب ولم يواته القدر لإتمامه ، فنظر فيه ابنه مترجمنا نظرة صادقة وقام على شرحه وتفسير أبياته المستغلقة ، وأتبعه بنقد أدبي لشعر المتنبي أزال عنه الزيف وظهره من أدرانته ، واحتال له بتصويب ما خالف اللغة وأوضاعها بلغة سهلة جامعة مانعة ، وفكر رائق وحجة دامغة ، وبدليل ما تقدم نتقل ما قال في نهاية الديوان^(١) . . . وكان أبي رحمه الله قد شرع في تعليق هذا الشرح على هامش نسخة من الديوان بخطه ، كان يثبت فيها ما يعنّ له من تفسير أو إعراب أو شرح بيت تذكرة لنفسه مع ذكر كثير من وقائع النظم وتراجم بعض الممدوحين وغيرهم مما يسبح له في أثناء مطالعته ، إلا أنه لم يتقص في شيء من ذلك ولا تتبع أبيات الديوان على التوالي وخصوصاً المواضع المستغلقة التي تدعو إلى إطالة الروية والاستنباط مما لم يرضه كلام الشراح

(١) « العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب » . المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٢٥ .

فيه ، فإنه كان يتجاوزها في الأغلب ، ويترك موضع الكلام فيها مخرجاً على الهامش ، كأنه كان ينوي معاودة هذا الشرح والتوفر على إتمامه ، ثم لم يفسح له في الأجل فبقى الشرح على علته « ويخلص إلى القول أنه أبقى عنوان الشرح باسم أبيه رعاية لكونه هو الواضع الأصيل ، فلم يؤثر أن يتطفل عليه في نسبة الكتاب وإن تطفل عليه في التأليف .

ومما يحملنا على إثبات بره بأبيه عدا ما تقدم ، تصديه للرد على أحمد فارس الشدياق ، وقد خطأ الشيخ ناصيف « والد المترجم » في عروبة بعض كلمات وردت في « مجمع البحرين » من أمثال « الفطحل » و « المرابض » ، والناظر في تلك المناقشة تتجلى له أخلاق الشيخ إبراهيم على صغر سنه وميعة شبابه ، وقد كال له الشدياق السباب ونعته بآلم النعوت وأخبث الأوصاف ، فما كانت غضبة الشدياق إلا لتزيد الشيخ إبراهيم حلمًا ، ولسان حاله يردد :

يزيد سفاهة وأزيد حلمًا كعود زاده الإحراق طيبا
وقد ترفع عن مقابله بالمثل من السباب والشتائم فما أخذته حدة ولا نزوة^(١) .

٥ - طعامه وشرابه

قضى الشيخ إبراهيم أعوامه الأخيرة متعففًا بطعامه وشرابه ، يتناول في الصباح طعامًا خفيفًا ، ويعكف على العمل ، حتى إذا جاء الظهر ، تغذى ودخن « الشيشة » (الأركيلة) ، ونام وقت القيلولة ، ثم يقضى بقية النهار في عمل لا يتعبه ، فيلاعب بعض معارفه بالرد ، ويصرف ما تبقى من نهاره بالفكاهات ، وفي المساء يقتصر على كوب من اللبن ثم يستأنف العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان لا يكتب إلا واقفًا أمام منضدة عالية^(٢) .

(١) « الشدياق واليازمي » طبعة بيروت ص ٦ .

(٢) « النفائس » ورواية عيسى إسكندر المعلوف وجرجي نقولا باز والفيكونت دى طرازى .

٦ - مواهبه وقرائحه

كان رحمه الله مصوراً متقناً وحفاراً ماهراً ، وله في الصناعة اليدوية المقام الأول ، والإتقان في كل عمل يعمله وحركة يأتيتها ، فهو متأق في قيامه وقعوده وفي كلامه وملبسه ، وفي مشربه وطعامه ، وفي مشيه كما في شعره ونثره ، في خطه وتصويره^(١) وعلى الجملة فقد كان رجل ثقافة واسعة ، ورجل فن وإتقان ، جنوحاً إلى العزلة المثمرة ، حريصاً على كرامة نفسه ، أبيعاً أنوفاً لا يخلو من كبر وقسوة لا ذعة لمن تحرش به على غير حق أو نال منه غمزاً ، لأنه كان يرى أن قناته لا تغمز لأنه ما كان لينشر ما يكتب إلا بعد روية وإعمال فكر ، ومراجعة ما يخط قلمه غير مرة ، وفي سبيل كلمة واحدة كان يدبج مقالة ليوضح معنى تلك الكلمة . وإن لم يجد للكلمة الأجنبية ما يرادفها بالعربية يثبتها بعد إجرائها على الأوزان العربية كقوله « التأكسد والجمنستيك »

المعلم

بعد أن فرغ من تنقيح الكتاب المقدس ، انصرف إلى تدريس اللغة العربية وآدابها في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت ، وفي هذه الأثناء اختصر ونقح كتب أبيه التي سيرد ذكرها في آثاره ، وكان له جملة من التلامذة الذين أعجبوا به وبأدبه وشغفه في نقل المعرفة إلى عقولهم وتدريبهم ، وفي طليعتهم الشيخ عبد الله البستاني وشاعر القطرين خليل مطران وتقلا وجبران النحاس وغيرهم ممن تأدبوا عايه ، وبالاطلاع على كتاباته وأبحاثه القيمة ولا سيما في مجلة الضياء ، على أن شهرته لم تقم على التعام بل على الصحافة كما سنوضحه في دراستنا هذه ، وعلى معرفة العربية وأسرارها كأحد كبار أئمتها ، وانتقاده المتقدمين والمتأخرين .

وله رأى باللغة يجدر بنا الإشارة إليه في قوله من مقال « اللغة والعصر » :
 « وبديهي أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وإنما كان يوضع منها الشيء بعد
 الشيء على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها . وقد اختصت هذه اللغة
 بمزية عزّ أن توجد في غيرها ، وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظي
 أو المعنوي ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه
 لغة ، على كونها من أقل اللغات أوضاعاً ، إلاّ أنّها من أكثرهنّ صيغاً وأبنيةً ،
 وهو السرّ في قبولها هذا الاتساع العجيب فضلاً عما فيها من تشعب طرق
 المجاز » .

فأنت ترى أن الشيخ يقرّ معترفاً أن اللغة لم توضع دفعة واحدة بل أخذت
 بسنة النشوء والارتقاء فكانت تتوالد بألفاظها بحسب الحاجة ، وكأني به يعترف
 أن اللغة كائن حتى تنمو بنمو أبنائها وتقوم على تأدية ما هم بحاجة إليه ، عملاً
 بسنة الاشتقاق والوضع والارتجال ، ويقول : « لو صادفت - أي اللغة العربية -
 من أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السعي في سبيل الحضارة وتوسيع نطاق
 العلم ، لم تقصر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم
 إلى مجازاة العصر الحالي » .